Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 2, Issue 1 (2023) • P: 18 - 1
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

Disutopian Manifestations in the Algerian Novel: A Case Study "Watan Men Zojaj, A Fragile Homeland"

Mrs. Fareda Jmea'an Alkrenawi
College of Graduate Studies | National Success University | Palestine

Received: 25/08/2022
Revised: 04/09/2022
Accepted: 21/09/2022
Published: 30/03/2023

* Corresponding author: fareda83@gmail.com

Citation: Alkrenawi, F. J. (2023). Disutopian Manifestations in the Algerian Novel: A Case Study "Watan Men Zojaj, A Fragile Homeland". *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 2(1),*1 – 18. https://doi.org/10.26389/AJSRP.A250822

2023 © AJSRP • National Research Center, Palestine, all rights reserved.

• Open Access

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: Literature is considered a medium by which a society could be mirrored. It is a barometer of the daily experiences we go through; thus, reflecting both the volatility and the evolvement taking place within a given community. Because the events ultimately take place in the realm of space and place, the Arabic city has been largely portrayed in the literary work. The imagery of the Arabic city delineated the good, the bad and the ugly changes within the society. When the events tracked are for the better, it is then that the Arabic city would be referred to as Utopia. Conversely, when the the events described are those of pain, suffering, extreme poverty and indiscriminate violence, it is then that the Arabic city is portrayed as dystopia, an incompatible and unsuited place for human thriving.

Terror and violence have permeated many of the Arab countries. This phenomenon has been tracked and portrayed in much of the literary work. It was delineated in quite a few creative novels. These novels stand out as a witness of the phenomenon, thus, creating disutopean literature. It is a literary space which portrays the miserable and unbearable reality. In this particular space, death hovers everywhere. The present reality becomes evidence of the obscure future; furthermore, the nostalgic memories become a prerequisite in the hearts of the individuals.

Therefore, the disutopia, the dysfunctional city , in the Arabic literature reflects the daily lives of the individuals and their happier past: this is the ultimate expression of suffering and misery.

In our study, we examine the portrayal of violence and dysutopia in the Arabic literature, specifically, in the novel, "*Watan men zojaj", A Fragile Homeland*, by Yasmeena Saleh, in which she addressed the critical era that Algeria had witnessed. It is a ten years period, at which death, destruction, assassination and hijacking has created intense national crisis. Thus, Algeria evolves into a guerrilla war zone in which the citizens could not live in security.

We found in our study, that the author was able to portray the disutupian reality in Algeria and were able to follow its ripple effects on time, place and the individuals.

Keywords: Arabic novel, Disutopian literature, civil war in Algeria, violence.

تجلّيات الديستوبيا في الرّواية الجزائريّة، رواية " وطن من زجاج" لياسمينة صالح أنموذجًا

أ. فريدة جميعان القريناوي
كلية الدراسات العليا | جامعة النّجاح الوطنيّة | فلسطين

المستخلص: يُعدّ الأدب مرآة المجتمع، لذلك نراه يتأثّر بالواقع المعيش، فيعكس كلّ ما يمرّ به المجتمع من تغيّراتٍ، أو تقلّبات.

ولأنّ الأحداث لا بدّ لها من مكانٍ تحدث فيه، كان للمدينة العربيّة أثرٌ بالغ الحضور في تصويرها، ورصد التحوّلات الّتي تمثّلها، سواء كانت إلى الأفضل لتصبحَ مكانًا تصلح الإقامة فيه (يوتوبيا)، أم إلى الأسوأ، فتكون بمثابة لعنةٍ لأبنائها، تذيقهم الويلات، وتُجرّعهم الآهات، من خلال الفقر المدقع، والعنف اللا محدود، والقتل العشوائي، فتكون مكانًا فاسدًا، غير صالح للحياة(ديستوبيا).

اكتسحت ظاهرة العنف والإرهاب العديد من البلدان العربيّة، الأمر الّذي قام الكتّاب برصده في إبداعاتهم الرّوائيّة، الّتي جاءت شاهدةً على ذلك، من خلال الاتّجاه إلى الأدب الديستوبي، الّذي يصوّر واقعًا سيئًا، لا مجال للعيش فيه؛ فشبح الموت يحوم في كلّ بقعةٍ فيه؛ ليتحوّل الحاضر فيه دليلًا على المستقبل الغامض، ويصبح الحنين إلى الماضي مطلبًا إلزاميًّا في نفوس الأفراد.

إذًا المدينة الفاسدة في الأدب، جاءت لتعكس لنا حياة أفراد، ماضيهم أجمل من حاضرهم، وهذه هي قمّة البؤس والمعاناة.

تتصدّى دراستنا هذه إلى بحث تمظهرات العنف والديستوبيا في الأدب العربي، من خلال رواية" وطن من زجاج" للكاتبة ياسمينة صالح، الّتي تحدّثت من خلالها عن إحدى الفترات الحرجة، الّتي شهدتها الجزائر، فترة الأزمة الوطنيّة، الّتي استمرّت عشر سنوات، أُزهقت فيها الكثير من الأرواح، وارتفعت حوادث الاغتيال والخطف، فتحوّلت الجزائر إلى حرب عصاباتٍ لا يمكنها حماية مواطنها.

وقد وجدنا أن الكاتبة تمكّنت من تصوير الواقع الديستوبي للجزائر، وكيف انعكس الأمر على المكان والزّمان والشّخوص.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربيّة، أدب الديستوبيا، الحرب الأهلية في الجزائر، العنف.

مقدّمة

شهدت المدينة العربيّة الكثير من التغيّرات، الّتي أدّت إلى تحوّلاتٍ في ميادينَ كثيرةٍ، تضمّنت مجالاتٍ شتّى. ولأنّ الأدب هو جزء من حياة الإنسان؛ كان لزامًا عليه أن يتصدّى لهذه التحوّلات، فتنعكس فيه، وتعطي صورةً كليّة عن الأحداث الّتي دارت في تلك الحقبة.

وتُعدّ ظاهرة العُنف والإرهاب الّتي اكتسحت البلدان العربيّة، من أهمّ الأمور الّتي مهّدت لهذه التّحوّلات؛ فجاءت الرواية العربيّة شاهدةً على ذلك، من خلال الاتّجاه إلى الأدب الديستوبي، الّذي يصوّر واقعًا يبدو غير مرغوب، تنعدم فيه الحياة، ويحوم شبح الموت فيه فوق الأماكن كلّها. وهكذا حلّ التشاؤم واليأس والخوف محلّ تيمات أحلام المستقبل المشرق، وصور القرية المثاليّة، وصار الخوف الحاضر العنيف دليلًا على المستقبل الغامض"[(1)].

بموجب هذا التغيّر الّذي طرأ على الرّواية، جاء التحوّل في صورة المدينة المنعكسة من خلال هذه الرّواية مختلفًا هو الآخر، فقد اتّجهت هذه الصورة إلى الديستوبيا، فرصدت حالات الخوف والموت والقتل اليومي الّذي يتمّ تداوله كما لو كان ظاهرة عاديّة جدًّا.

وفي دراستنا هذه قمنا بالحديث عن إحدى هذه الروايات، وهي رواية " وطن من زجاج" للكاتبة ياسمينة صالح، الّتي وصفت واقع العنف والديستوبيا في الجزائر، فترة الأزمة الوطنيّة، الّتي استمرّت عشر سنوات، أزهقت فيها الكثير من الأرواح، وارتفعت حوادث الاغتيال والخطف، فتحوّلت الجزائر إلى حرب عصاباتٍ لا يمكنها حماية مواطنيها. فجاء وقوفنا في دراستنا للرواية على صورة المدينة الفاسدة، وتمظهرات العنف والإرهاب فيها.

ولأجل تحقيق الهدف من هذه الدّراسة، لجأنا إلى التحليل وفقًا للمنهج الوصفي، متّكئين على البنيويّة والسيميائيّة حين تطلّب الأمر ذلك.

مشكلة الدّراسة:

إنّ المشكلة الّتي دفعتنا إلى القيام بهذه الدراسة تلخّصت في تمظهرات الديستوبيا في الرواية الجزائرية، وكيف تنعكس على سلوك الفرد. وقد انبثق عن ذلك السؤال:

كيف يؤثّر المكان الديستوبي على حياة الأفراد، وعلى الواقع الّذي يعيشونه؟

وفي سبيل التحضير لهذا الدراسة، كان لا بدّ لنا أن نتوجّه إلى دراساتٍ سابقة تطرّقت إلى هذه الرواية، أو رواياتٍ أخر خلال الفترة العشرية، الّتي تطرّقت إليها أحداث الرواية، لنفيد منها، وقد وجدنا الدراسات التالية:

1- قراءة نقدية لرواية (وطن من زجاج) للأديبة الجزائرية ياسمينة صالح لنازك ضمرة[(2)].
2- الرّواية النّسوية الجزائريّة ترصد محنة الوطن في العشريّة السّوداء.- رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح- أنموذجا لعلّا عبد الرازق[(3)].
3- جدلية الذات والوطن في رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح- عساني نزيهة وإبراهيم عبد النور[(4)].

---

(1) حسين، تروش، (2020). " العنف وديستوبيا المدينة في الرواية العربية المعاصرة" المجلة العربية للعوم الإنسانية، جامعة الكويت- مجلس النّذر العملي، مجلد 38، عدد 152، ص ص 274.

(2) نازك، ضمرة،(2010). " قراءة نقدية لرواية (وطن من زجاج) للأديبة الجزائرية ياسمينة صالح"، المجلة الثقافية الجزائريّة، تاريخ 2010/07/08.

(3)علّا عبد الرازق، " الرّواية النّسوية الجزائريّة ترصد محنة الوطن في العشريّة السّوداء، رواية "وطن من زجاج لياسمينة صالح- أنموذجا"، مجلّة المدوّنة، مجلد 8، عدد 2، ص ص 1781-1792، 2021/06/30.

(4) عيساني نزيهة؛ براهيم عبد النور،(2018). " جدلية الذات والوطن في رواية وطن من زجاج لياسمينة ، عدد صالح". مجلّة دراسات، المجلد 7، عدد 01، ص ص 68-78.

4- الإهداء كمصاحب نصّي في رواية وطن من زجاج لياسمينة الصّالح: قراءة في الأبعاد الدّلاليّة والوظيفيّة" ليوسف العايب[5].

وجميع هذه الدراسات تناولت الوطن ككلّ في الراوية، أو ركّزت على جانبٍ ما، في حين جاءت دراستنا حول المدينة الفاسدة فقط، وكيف تؤثّر الإقامة في مثل هذه المدينة على حياة الفرد، وعلى عنصريّ الزمان والمكان، وفي هذا تكمن أهميّتها.

ولأجل تحقيق الهدف من هذه الدّراسة، لجأنا إلى التحليل وفقًا للمنهج الوصفي، متّكئين على البنيويّة والسيميائيّة حين تطلّب الأمر ذلك.

وقد جعلنا الدّراسة في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول، تناولنا فيه التّعريف بالمدينة الفاسدة، أو ما تم الاصطلاح عليه بالدّيستوبيا، ثمّ انتقلنا للحديث عن مميّزات هذه المدينة، واختتمناه بظهور هذه المدينة في أدب الرّواية الجزائريّة، لكون النّص المُعالَج يحتّم علينا ذلك.

والمبحث الثّاني، فقد تناول تقديم نبذة عن حياة الكاتبة، ثم شرح لموجز الرّواية، وتأويل لعتباتها.

أمّا المبحث الثّالث فجاء تطبيقيًّا لتجلّيات الديستوبيا في الرواية، وذلك من خلال انعكاس العنف فيها، وتعاملها مع الإنسان، والزّمان.

ثم أنهينا الدّراسة بخاتمة اشتملت على أهمّ ما خرجنا به من خلال هذه الدّراسة سائلين المولى ان نكون قد وُفّقنا في إيفائها حقّها.

المبحث الأول

لم يتكّمن الروائيّون من تجاهل الأحداث العنيفة الّتي شهدتها بلدانهم، واستحالة الحياة فيها؛ فالشّعور الملازم بالخوف والرّعب، وحالة عدم الأمان، وشبح الموت الحائم فوق أوطانهم، وما رافقها من مشاعر وأحاسيس، جعلهم يقومون بتوثيق هذه الأحداث من خلال الكتابة الروائيّة، فتطرّقوا إلى التغيّرات الّتي حدثت على المكان والزمان، وكيفيّة تأثّرهما بالأحداث. وهكذا نتج لدينا أدب ديستوبي، انعكست من خلاله المدينة على أنّها فاسدة، لا تصلح للعيش.

وقد قمنا في هذا المبحث بالتعريف بالمدينة الفاسدة وما مميزاها، وكيف تنعكس في الأدب الجزائريّ.

الديستوبيا/ المدينة الفاسدة

تأتي لفظة (الديستوبيا) "dystopia" النّقيض من اليوتوبيا، الّتي تعني المدينة الفاضلة، والحلم في العيش في واقعٍ أفضل، متخيّل في الغالب. أمّا الدّيستوبيا فهي المدينة الفاسدة الّتي ترزح تحت الفقر والجوع والظلم، حيث يتنحّى فيها الإنسان عن مبادئ الأخلاق والقيم، فيتّجه نحو الضّياع والاندثار في التعصّبات والرّذائل، وقد ارتبطت معاني هذه المدينة بالأدب والسّياسة والفلسفة البشريّة.

وكلمة " الديستوبيا" مأخوذة من اليونانية بمعنى المكان الخبيث، والأدب الّذي يتناولها في الكتابة، " يعكس الواقع الاجتماعيّ-السّياسيّ المعاصر ويستنتج أسوأ سيناريوهات وأسوأ الحالات كتحذيرات للتّغيير الاجتماعيّ أو الحذر الضّروريّ"[6]. كما أنّ الرّوايات الخبيثة تعكس دائما مخاوف من ثقافة معاصرة سائدة.

(5) يوسف العايب، (2019). " الإهداء كمصاحب نصّي في رواية وطن من زجاج لياسمينة الصّالح: قراءة في الأبعاد الدّلاليّة والوظيفيّة"، مجلّة جسور المعرفة، المجلّد 05، ع 02.

الأدب الديستوبي أو أدب المدينة الفاسدة، هو أدب يعكس واقع مرير غير قابل للعيش فيه، فهو مجتمع خيالي مخيف، تسوده الفوضى وعدم النّظام، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل، والإرهاب، والموت، والقمع، والفقر، والمرض. وحين يكتب الرّوائي فإنّه يرصد الواقع الموجود، فيصوّر المكان واقعًا لمجريات الأحداث ومن هنا يأتي استخدام ديستوبيا المدينة في الرواية.

وقد عُرِفَ هذا المصطلح عند الكاتب جورج أورويل في روايته الموسومة بـ(1984)، الّتي ، الّتي تناولت أحداثها عالمًا مليء بالحرب والرّقابة الحكوميّة والتّلاعب بالنّاس وبمصائرهم. كما كُتبت روايات عديدة في هذا الموضوع منها: " The Hunger Game" ألعاب الجوع لسوزان كولبنز، ورواية" The host" لستيفاني ماير، ورواية فهر نهايت 451 لراي برادبري، وغيرها من الرّوايات.

مميّزات المدينة الفاسدة:

لأنّ الرّواية الديستوبّيّة مُستقاة لتصوير واقعٍ سلبيّ، تعيشه الشّخصيّات في مكانٍ ما، الأمر الّذي يخلق تفاعلًا بينها وبين الأحداث ليشكّل بيئةً حاضنة لها. وهذه البيئة تشكّلت من خلال المدينة، أو علاقة الإنسان بالمدينة على وجه التّحديد.

إنّ ما يميّز المدينة الدّيستوبيّة هو معاناتها من تغيّرات سياسيّة إثر الاحتلال، أو السّياسات الّتي يمارسها الطّواغيت فيها، ممّا يؤدّي إلى سوء في العلاقات بين النّاس.

غالبًا تبرز هذه المدينة كمكان سيّء، تعمّه الفوضى وتسيّره عصابات الإرهاب، واللّا نظام، كما أنّها تُعدّ مكانًا منكوبًا لتردّي الأحوال السياسيّة، وفساد العلاقات الاجتماعيّة بين النّاس.

وفي هذه المدينة يكون القتل والقمع والموت من المشاهد المألوفة بالنّسبة للنّاس. وهذا هو العالم الدّيستوبّي الّذي " عاش فيه الكتّاب والرّوائيّون، بدأ هؤلاء يعبّرون عن المدينة المنهارة الّتي تتمثّل في القبح الاستعماري، واستبداد الأنظمة والنّظرة السّلطويّة السّائدة في المجتمع"[(7)]. لذلك جاءت كتاباتهم معبّرة عن واقع غير مرغوب، يبحثون من خلاله عن واقع أفضل، واقع يوتوبي، يسمح للمرء بالحياة الكريمة وتحقيق الذّات.

إنّنا إذن، عند حديثنا عن الدّيستوبيا، نقصد مكانًا لا يطمح أحدٌ للعيش فيه، حيث ذوبان المبادئ وانصهار الإنسانيّة.

ج- الرواية الديستوبية في الجزائر:

تأثّرت الرواية الجزائريّة بالأحداث والأزمات الّتي مرّت بها الجزائر، أثر الموجات الإرهابيّة المتطرّفة، الّتي عصفت بها في سنوات التّسعين من القرن الماضي، حيث عانت الجزائر من " أزمة وطنيّة"، وهي" فترة حرجة أو حالة غير مستقرّة يترتّب عليها حدوث نتيجة مؤثّرة، تنطوي في الأغلب على أحداثٍ سريعة، وتهديد للقيم، والأهداف الّتي يؤمن بها من يتأثّر بالأزمة"[(8)]. هذه الأزمة عُرِفت بالحرب العشريّة السوداء، وهي حربٌ أهليّة اندلعت في الجزائر شكّل النظام الحاكم والفصائل المسلّحة أطرافه المتنازعة. كان سببها تدخّل الجيش الجزائري في انتخابات المجلس التشريعي في الجزائر عام 1991، حيث حقّقت فيها الجبهة الإسلامية فوزًا مؤكّدًا، الأمر الّذي جعل الجيش الجزائري يدخل في

(6) فاطمة برجكاني، (2018). " الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية" لفوزي ذبيان"، مجلة إضاءات نقدية في الادبين العربي والفارسي، عدد 29، ص 136.

(7) فاطمة برجكاني،(2018). " الدّيستوبيا في الرّواية العربية، قراءة في رواية" أورويل في الضّاحية الجنوبيّة" لفوزي ذبيان" مجلة إضاءات نقدية في الادبين العربي والفارسي، عدد 29.، ص 133.

(8) الظاهر نعيم، (1999). إدارة الأزمات، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1، ص8.

حالة رعب من تولّي الإسلاميّين الحكم، لذلك تدخّل من أجل إلغاء الانتخابات، وهذا الأمر أدّى إلى إضرابات واحتجاجات وأحداث عنفٍ دامية شهدتها شوارع الجزائر، مُهّدت بأزمة اقتصاديّة حادّة.

وحرب العصابات هذه، استمرّت عشر سنوات، تحوّلت فيه الجزائر إلى كابوس يحتوي على منظّمات إرهابيّة، تمارس القتل العشوائيّ، وتدخل الرّعب في قلوب الجميع. وقد انتهت هذه الحرب الدّامية مع دخول مشروع" الوئام المدنيّ"[(9)]. الّذي ساهم في تحسّن الحالة الأمنية للجزائر، إلا أن آثار تلك الفجيعة القاسية، بقيت تنكأ الجروح العالقة في الذّاكرة الجزائريّة، صوّرها لنا الكتّاب الجزائريّون في أعمالهم الأدبيّة، فجاء أدبهم واصفًا لمحنة ومأساة أتت على كلّ ما وجدته أمامها فعاث الفساد والخراب والدّمار الشّامل في كلّ مكان وزمان.

وكانت الرّواية في الجزائر من أكثر الأشكال الإبداعيّة تأثّرًا بهذه الأزمة، لذا عبّرت عنها بكثرة، متّخذةً عنصر الوصف راصدًا للواقع الديستوبي البشع، " وقد بدأت الرّواية الجزائريّة، جرّاء هذه الظّروف الجديدة تعرف ما يمكن تسميته بمرحلة الشّك؛ إذ عبّرت نصوصها وبطرق مختلفة عن هذا الوضع المتأزّم الّذي بلغ ذروته مع بداية التسعينات الّتي اتّسمت باستعمال العنف الرمزي والمادّي، أي الاغتيال السّياسي الفردي والجماعي، إنّها مرحلة تداخل المفاهيم وزعزعة اليقينيّات وغياب الأمن والاستقرار السّياسي والاجتماعي"[(10)].

ولعلّ أبشع المشاعر الّتي جاءت لتصف هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، هو التّعبير الّذي استهلّت به الكاتبة " ياسمينة صالح" روايتها" وطن من زجاج"، الّتي نتناولها في دراستنا هذه؛ إذ تقول:" "حين نستيقظ صباحاً ولا نجدُ وطناً نتّكئ عليه، نكتشفُ مقدار اليتمِ والفراغ الذي نجرّهُ يوميًّا في عمرنا الجاهز للانكسار واليتم واللا أمل[(11)]".

يرى غاستون باشلار" أنّ العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته، وبالتّالي أصالته"[(12)]. وقد تضمّنت الرواية الجزائريّة حضورًا قويا لعنصر المكان، ممّا جعلنا نستنتج أنّ المكان قد تجاوز وظيفته الأساسية، وأصبح عنصرا مهما من عناصر البناء الفني والتشكيل الجسمي للرواية وتشكل الأحداث. وما يميّز هذه الرّوايات حضور فضاء المدينة كمكان تدور فيه الأحداث، على الغالب، ليغدو بهذا كيانا اجتماعيا يمثل خلاصة تجارب الإنسان والمجتمع.

وكثافة الحضور هذه، تجعلها تتخطّى طبيعتها المكانية لتصبح ذات مستوى دلالي يجعل منها فضاء للأزمة على مختلف أبعادها.

المبحث الثاني: تحليل الرّواية

قمنا باستهلال هذا المبحث بالتعريف بالكاتبة، ياسمينة صالح، ثمّ تقديم موجز للرواية، تلتها دراسة للعتبات النصيّة، نحو: عتبة العنوان، والإهداء، والغلاف.

---

(9) قانون أصدره الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بعد التشاو مع القوى السياسية في البلاد، و صوّت عليه الشعب بالإيجاب و القبول، هذا القانون هدف إلى الحد من العنف و قطع الطريق عليه. وفتح باب المراجعة والتّوبة لمن غرّر بهم، إذ يتضمّن الإعفاء من المتابعات القضائيّة و تخفيف العقوبات على من انتمى إلى إحدى المنظّمات الإرهابية ما لم يرتكب جرائم أدت إلى قتل أشخاص أو تسبّبت في عجز دائم أو اغتصاب أو وضع متفجّرات في أماكن عامة...(ينظر في: بوقندول حبيبية؛ بوهالي حسيبة، " ظاهرة الإرهاب في رواية "وطن من زجاج"، رسالة ماجستير، جامعة عبد الرحمن ميرة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ص 44.

(10) داود محمد، الأدباء الشباب والعنف في الوقت الرّاهن، مجلّة دفاتر إنسانيّات، مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعيّة والثّقافيّة، الجزائر، عدد 1، ص 106.

(11) ياسمينة، صالح. وطن من زجاج، ص5.

(12) جاستون – باشلار،(1980). جماليات المكان: ترجمة:غالب هلسا، كتاب الأقلام(1)، يصدر عن مجلة الأقلام، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دار الحرية للطباعة.

تعريف بالكاتبة ياسمينة صالح:

ياسمينة صالح قاصة وروائية جزائرية حاصلة على دبلوم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، اشتغلت في بدايتها في التدريس لكنها انسحبت لتشتغل في الصحافة المكتوبة منها جريدة المجاهد. كما أشرفت سنة 2000 على القسم الثقافي في مجلة نسائية جزائرية، وحتى الآن مازالت تزاول مهنة الصحافة.

بدأت مشوارها الأدبي بكتابة القصة القصيرة ثم تحوّلت إلى فن النفس الطويل/الرواية حيث حصلت روايتها الأولى "بحر الصمت" على جائزة مالك حداد الأدبية لعام 2001، كما صدرت لها ثلاث مجموعات قصصية هي: "حين نلتقي غرباء"، و"قليل من الشمس تكفي"، و"وطن الكلام"، الّتي كانت السّبب في حصولها على عدة جوائز أدبية عربية وجزائرية.

كما أنّ لها مجموعة قصصيّة مترجمة عن الأدب الغربي، بعنوان: "ناستالجيا".أما في الرواية فصدرت لها بعد "بحر الصمت"، و"وطن من زجاج" عن الدار العربية للعلوم ببيروت عام 2006، والتي حازت على جائزة القراءة في تونس. و"لخضر" عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت أوائل 2010. ترجمت أعمالها إلى الفرنسية والإسبانية.[13]

موجز الرّواية:

تُعدّ رواية" وطن من زجاج" للكاتبة الجزائريّة" ياسمينة صالح" من الروايات اللّواتي يلفّهنّ الغموض، فمنذ النّظرة الأولى للعنوان يوقن القارئ أنّه أمام نص مختلف، يتناول موضوع الوطن بحساسيّة غير واضحة. وهي الرّواية الثّانية للكاتبة الّتي من خلالها دوّنت مأساة وطنيّة ورصدت الخراب والدّمار الّذي حلّ بوطنها أثر التّناحرات السياسيّة وحرب العصابات والشوارع فيه.

فجاءت الرّواية واصفة لأحداث تلك الفترة العشريّة الّتي كانت في بلادها، وقد اختارت الكاتبة أن تبدأ روايتها من النّهاية، مستخدمةً أسلوب الاسترجاع الفنّي؛ ليأتي ذلك للدّلالة على ازدحام الذّاكرة الجزائريّة بالأحداث العنيفة والهزيمة الذّاتيّة من جرّاء الإرهاب.

اختارت الكاتبة لروايتها أسلوب السّرد الذّاتي، الّذي جاء على لسان" لاكامورا" وهو لقب أطلقه أهل القرية على الرّاوي حينما كان طفلًا، وذلك لاصطحابه لأبناء القرية للسباحة في السّيل، فيموتون غرقًا، أمّا هو فيعود حاملًا جثثهم إلى أهلهم. وبسبب هذه الأحداث، يقول الرّاوي" مع الوقت صار النّاس يطلقون عليّ لقبًا غريبًا: لاكامورا! شيئًا فشيئًا فهمت أن لاكامورا تعني ببساطة من لا حقّ له في الموت براحة"[14]. ولاكامورا تشبه مدينة خرافيّة تشبه المدن الّتي كان يقيم فيها الرومانيون القدماء، ثمّ اكتشفوا هباء الكون فاختاروا الخلاص والموت وقوفًا وبشرف.

وقد رافقت لاكامورا العديد من الخيبات والانكسارات في حياته، فبدأ الحياة بالفقد، فيوم ميلاده كانت وفاة امّه، الّتي أحبّها أبوه، لذلك كان العلاقة بينه وبين والده تتّصف بالبلادة، انتهت بالتّخلي التّام للأب عنه، وذلك بهروبه من القرية؛ لأنّ جدّه" الحاج عبد الله" وهو إقطاعيّ متسلّط، أراد تزويجه من ابنة رئيس البلديّة، حتى يتمكّن من اكتساب أراضٍ أخرى بموجب هذه الزّيجة، فيضمّها إلى أرضه الكبيرة، الّتي يستغلّ أبناء القرية للعمل بها.

بعدها انتقل لاكامورا إلى حضن عمّته المشلولة، فكانت تحبّه كثيرًا، فعوّض من خلالها اليتم والفقد، وتعلّق بها كثيرًا، لكنّ هذه العمّة توفّيت قهرًا وذلك بعد رفض والدها تزويجها من عامل الاسطبل، الرّجل الّذي أحبّها

(13) نوّارة لحرش، حوار مع الروائية ياسمينة الصالح، رابطة ادباء الشام.
رابطة أدباء الشام - مع الروائية الجزائرية ياسمينة صالح(odabasham.net)
(14) ياسمينة صالح، وطن من زجاج، ص 37.

وأحبّته، ولأنّه تجرّأ على طلب يدها، اتّهمه الجد بالسّرقة واشتكاه للشّرطة، فما كان من الرّجل إلّا الهروب والاختفاء عن الأنظار، وهذا أدّى إلى حزن العمّة حزنًا شديدًا، فظلّت تذوي حتى ماتت.

وقد أثّر موت العمّة على الجدّ كثيرًا، ولم يكن هذا التّأثير بسبب فقدانه لابنته الوحيدة، إنما بسبب اهتمام أهل القرية وسؤالهم عن كيفيّة الميتة(حبّها لعامل الاسطبل، الّذي رفضه والدها).

بعد وفاة العمّة لم يبقَ للرّاوي إلا جدّه، الّذي أخذت حالته الصحية تتلاشى يومًا تلو الآخر، وخلال هذه الفترة كان يحثّ الرّاوي على التفوّق في دراسته، وقام ببيع الأرض، ثمّ البيت والأملاك لرئيس البلديّة، الّذي كان يأتي لزيارته فيتّفقا على البيع والشّراء.

واستمرّت حالة الجد الصحيّة في التدهور حتى مات تاركًا الرّاوي يتيمًا، لا أحد له في القرية، وكان ابن تسعة عشر عامًا آنذاك.

وهكذا توالت الخيبات والانكسارات على لاكامورا، على مستوى العائلة، ثمّ بدأت هذه الصدمات تأتي من كل اتّجاه، فصديقه" الرّشيد" الّذي كان محبًّا للوطن والواجب مات في اشتباكاتٍ مع جماعة مسلّحة.

وقد بلغ الرّاوي خبر مقتل الرّشيد وهو في المقهى، فتحدّث عن قصته مع "العربي"، الرّجل الّذي بُترت ساقه من أجل الوطن والواجب، وقد شهد جميع الجرائم الّتي كان يعاني منها الشعب الجزائريّ، وهو " واحدٌ من الّذين همّشهم الوطن، أخذ منه رجله وتركه عاجزًا عن المشي والحلم أيضًا"[15]. وقد كان " العربي" دائم الرواية لقصته الّتي خسر فيها ساقه، وذلك خلال عمله على تصفية الوطن من الخونة والعملاء، وكان دائم الحثّ على حب الوطن وتلبية نداءاته، فكان يحرص على قوله للراوي:" الوطن حقيقة يجب الإيمان بها يا بنيّ. الوطن ليس رئيس الجمهوريّة وليس الحكومة وليس الغيلان السياسيّين، ولا الجلّادين، ولا السجّانين، ولا المنفيّين ولا المفقودين، ولا الخونة ولا الإرهابيّين"[16]. وقد تمّ اختطاف " العربيّ" على الرّغم من عجزه، ليصل خبر وفاته إلى الرّاوي، مُضيفًا رصيدًا آخر لهزائمه وانكساراته.

والرّاوي قبل مغادرته القرية يذكر شخصيّة المعلم، ابن المدينة، الّذي كان يثور على الإقطاعيّين، ويخطب في النّاس ليوقظهم ممّا هم فيه من عبوديّة وانتهاك لكرامتهم، وقد كان النّاس يستمعون إليه ويبدون موافقتهم لما يقوله، لكنّهم لم يفعلوا وفق ما يقوله، لأنّهم مدركون أنّه سيعود يومًا إلى المدينة، تاركًا إياهم مع خيباتهم في القرية.

وبسبب مواقف المعلّم، ضد العبوديّة والنظام الإقطاعيّ، كان هناك موقف عدائيّ بينه وبين الجد عبد الله، الّذي رأى في مواقف المعلّم خطرًا يداهم مستقبل سلطته، ونفوذه. لذلك تآمر عليه مع رئيس البلديّة، فتمّ فصله من العمل وطرده من القرية، وقد كانت تربط الرّاوي بهذا المعلم علاقة قويّة، وكذلك علاقة مع ابنه" النّذير" وابنته الّتي تحوّلت فيما بعد حبيبة الرّاوي.

وقد كانت آخر محادثة بين المعلم والرّاوي، حين قال له:" اسمع يا بنيّ. أريد أن تكون مختلفًا عن جدّك. كُن انت. بكيانك المليء بالخير وبإحساسك نحو الآخرين. كُن انت فقط.."[17]. وهذه الكلمات كانت هي سبب تساؤل الرّاوي لنفسه لمراتٍ عديدة:" من أنا؟".

جاء فقدان لاكامورا إلى كل من يحب في القرية(عمّته، المعلم وعائلته، ثم موت الجد)، سببًا كافيًا ليجعله يبذل الجهود حتّى يتفوّق في دراسته، وينتقل إلى المدينة، وبدلًا من العثور على ذاته وتحقيقها هناك، وجد نفسه ضائعًا. حتّى في الجامعة لم يكن في التّخصص الّذي يريده، لكنّه بعدما أنهى لجأ إلى العمل في الصّحافةِ، فشاءت

(15) المصدر السابق، ص 12

(16) المصدر السّابق، ص 11

(17) المصدر السابق، ص 41.

الأقدار أن يلتقي بصديقه" النّذير" فيعرف منه عمله في مجال الصّحافة، وأنّ والده المعلم توفّي وهو يعمل حمّالًا في الميناء، وأخته أصبحت طبيبة.

يقرّر الرّاوي أن يؤسّس جريدة" مدى الجزائر" مع صديقه النّذير" وهي جريدة حرّة مستقلّة، كانت تعبّر عن آلام ومآسي المجتمع، ونشر صور الموتى والمغتالين، تهتدي ببوصلة الحق في ما تنشره، وبسبب ذلك كانت تصل " النّذير" الكثير من رسائل التّهديد بالقتل، حتى صار يزور أمّه خفية، وفي كلّ مرّة كان يصطحب الرّاوي، لاكامورا، معه، وفي هذا الذّهاب تكمن فرحة الرّاوي لأنّه يتمكّن من رؤية أخت النّذير الّتي أحبّها قلبه.

واستمرّت الأمور على هذه الحال، حتّى جاء اليوم الّذي أصيب فيه النّذير برصاصةٍ، أرقدته المشفى حتى فارق الحياة، ليرفع الحدث من كميّة انكسارات الرّاوي خيباته، لكنّ هذا الأمر بلغ ذروته حينما علم أنّ أخت " النّذير"، حبيبته، مخطوبةٌ لضابط شرطة، ممّا أفقده الأمل في الاستمرار في العيش، فلم يعُد له أي أمل يحيا من اجله، فيقرّر مغادرة الجزائر إلى سوريّا، لكنّ تنقلب المعادلة وتتغيّر الأمور باغتيال خطيب حبيبته، فيعود لمواساتهما، ويعترف بحبّه لها.

وهكذا على الرّغم من سوداويّة الاحداث، إلّا أنّ الحب انتصر أخيرًا في وطنٍ لم يكن فيه سوى القتل والموتى والإرهاب، وطنٌ هشّ مصنوعٌ من زجاجٍ، لكنّه وطن.

العتبات النّصّيّة لرواية: " وطن من زجاج"

عتبة الغلاف:

توجد للغلاف في نظر السّيميائيّين، أهميّةٌ لا يمكن تجاهلها، فما يتمّ اختياره، سواء كان ذلك صورة، أو لوحة، أو كلمات، أو حتى ترتيب، لم يأتِ من فراغ؛ لذا يتحتّم على من يريد أن يخصّ أي عمل أدبي بدراسةٍ ما، أن يتطرّق إلى صفحة الغلاف، ويعمل على تأويل ما يأتي فيها قبل الولوج إلى عالم النّصّ؛ لأنّه من خلال ذلك" تتجسّد مختلف الأبعاد الدّلاليّة والبنائيّة، وتتحقّق القيم الفنّيّة والجماليّة للأثر الأدبيّ، كما يعتبر الغلاف لوحة إشهاريّة تروّج لمضمون الرّواية قصد جذب القارئ والمتلقّي لولوج عالمها"[(18)].

في رواية " وطن من زجاج" يأتي العنوان في منتصف الصّفحة، بخطّ بارز أحمر اللّون، له خلفيّة بيضاء، وتحت العنوان بقليل يأتي نوع الجنس الأدبي وهو رواية، وقد جاء اسم الكاتبة " ياسمينة صّالح" فوق العنوان، وكأنّه جزءٌ من اللّوحة الّتي تشكّل الغلاف، ربّما ليعكس ذلك أنّ الكاتبة هي جزء من المحتوى، وكيف لا؟ وهي تروي قصّة شعبها الجزائر الّتي تشكّل جزءًا منه؟ أمّا بخصوص اللوحة فهي عبارة عن سلسلة ممتدّة من الجبال المكسوّة بالأخضر، في حين أسفلها تظهر مجموعة من الأطفال الّذين يمرحون بين السّهول والوديان، ليدلّ ذلك على الجوّ الرّيفي وبساطة العيش، وأسفل الصورة ظهر اللّون الاحمر بدلًا من اللون الطبيعي للون الأرض، وكأنّه يشير إلى أنّ الدّماء المُراقة كانت من أجل الوطن، وقد يدلّ لعب الأولاد في أحضان الطبيعة على البساطة والبراءة والأجواء الآمنة، واقتراب اللون الأحمر منهم يدلّ على سلبهم هذه البراءة إلى جانب سلبهم الأمان والحياة.

بين قمّة الجبال والأرض يفصل عنوان الرّواية مشكّلًا حاجزًا بين اللّونين: الأخضر والأحمر، ومن حيث رمزيّة الألوان فإنّ اللّون الأخضر يأتي رمزًا للتفاؤل والسموّ والسّلام، كما أنّه رمزُ التجدّد والأمل، في حين يكون اللّون الأحمر رامزًا للون الدّم والموت وجراح أبناء الجزائر الّتي لم تلتئم.

إلى جانب الأحمر والأخضر، كان هناك حضورٌ للّون الأسود، جاء في أسفل اللّوحة، وهو لونٌ يرمز إلى الحزن والموت الّذي اتّشحت تفاصيل الرّواية به، كما برز اللّون الأصفر الّذي جاء ليدلّ على المرض أو ربّما الفقر.

(18) صبريّة خنشيل؛ صليحة بوفدش،(2018). " بنية الفضاء في رواية وطن من زجاج" ، رسالة ماجستير، كلّيّة الآداب واللّغات، جامعة محمد الصديق، ص 71.

وفي إجمالنا للوحة الغلاف نرى إن يشي بمضمون الرّواية، ولهذا لا غرابة في إتيان الكاتبة لعنوان يحمل مفارقةً عن " وطنٍ من زجاج" ليصدم القارئ بمضمونه، ويتركه في حالةٍ من التّساؤل حول ماهيّة هذا الوطن، ليجدَ نفسه واقفًا وجهًا لوجه محاولًا فهم ذلك.

عتبة العنوان:

للعنوان دلالة رئيسة ومهمّة جدًّا، والوقوف عندها أمرٌ حتميّ في سياق دراسة العمل الأدبيّ، قبل الدخول إلى عالم النّصّ؛ لذا يحرص الكاتب على انتقائه ليكون لافتًا؛ لا يأتي هذا الاختيار عشوائيًّا، بل يكون موجّهًا للقارئ منذ البداية، مثل رصاصةٍ لا تخطئ الهدف.

والعنوان عند السيميائيّين يشكّل" سؤالًا إشكاليًّا، بينما النّص هو بمثابة إجابة عن هذا السّؤال"[19]، وهو أول المؤشّرات الّتي تجعل المتلقّي يدخل في حوارٍ مثيرٍ للإغراء والفضول المعرفيّ مع النّصّ؛ فيثير شهيّة القارئ في الإقبال عليه و تداول قراءته، أو النفور منه و استهجانه .

وعنوان الرّواية" وطن من زجاج" يأتي من النّوع المستفزّ للقارئ، حيث يشكّل مفارقة لغويّة تأتي منذ اللّحظة الأولى، الّتي تقع عين القارئ عليه. فهو عبارة عن جملة اسمية اشتملت على اسمٍ نكرة(وطن)، خُبّر عنه بشبه جملةٍ دلّت على نوع وتركيبة هذا الوطن(من زجاج)، وهذا الأمر يفتح أمام القارئ سيلًا من التساؤلات، تدور حول ماهيّة هذا الوطن، وكيف يأتي أو يكون.

إنّه أمام وطنٍ لا يشبه باقي الأوطان، وطن مصنوعٌ من الزّجاج، وقد ينهار أو يتهشّم أو يُكسر وينتهي شأنه، فالزجاج حينما يكسر لا يمكن إعادته إلى ما كان عليه، وإذا أردنا تصليحه، يتسنّى لنا ذلك باستبداله فقط، وحين يكون هذا الزّجاجُ وطنًا، كيف لنا أن نستبدله؟

يُعدّ الوطن ذلك الحضن الدافئ الّذي نولد فيه، فنكتسب الانتماء إليه وإلى مصيره منذ لحظة الولادة، لذلك لا مجال أو خيار لاستبداله بآخر، ومجيء هذا الوطن من زجاج، ما هو إلا نذير شؤمٍ وطالع نحسٍ ومعاناة ممتدّة من المهدِ إلى اللّحد للمُبتَلى به.

إنّه وطنٌ غير آمن، قابل للانكسار والتّهشيم في كل لحظة، أمّا شظاياه المتناثرة فستكون من نصيب أبنائه، الّذين سيُصابون بالجروح وربّما الموت من جرّاء ذلك.

هو وطنٌ نكرة، لا نعرف أين يقع مكانه، فالتّنكير أعطاه صفة الشموليّة ليرمزَ إلى كل وطنٍ في العالم العربيّ، وهو وطن هشّ يشكّل خطرًا حقيقيًّا على القاطنين فيه أو الواقعين حوله.

إنّ الوطن والزّجاج، شكّلا النّواة الأصليّة التي تتفجّر منها مفاهيم و" دلالات متوارية يلتمس القارئ مضامينها عند مباشرته قراءة الرّواية و يجد نفسه يدخل إلى ذلك الوطن الزجاجي ليكتشف ملامح جيل آخر"[20]، هو الجيل الّذي تصفه الكاتبة بقولها: " إنّه جيل المجزرة. جيل القتل اليومي و سرقة الأحلام و الإهانة الرسمية"[21]. ومن خلال هذا العنوان يمكن لنا أن نستدلّ على الرّؤية السوداويّة والتّشاؤميّة للكاتبة، لا سيّما أنّها كتبت هذه الرّواية بفترة ليست ببعيدة(2006)، عن العشريّة السّوداء الّتي مرّت بها الجزائر.

(19) جميل حمداوي،(1997)." السيموطيقيا والعَنْوَنة" ، مجلّة عالم الفكر، الكويت، وزارة الإعلام، عدد 3، ص108.

(20) هدى عمّاري،(2012). " سميائيّة بنية المناص في رواية وطن من زجاج للروائية ياسمينة صالح"، المجلّة الثّقافيّة الجزائريّة، سميائية بنية المناص في رواية وطن من زجاج للروائية ياسمينة صالح – المجلة الثقافية الجزائرية(thakafamag.com)

(21) ياسمينة صالح،(2006). وطن من زجاج ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص5

ج- عتبة الإهداء:

"يأتي الإهداء كبوّابة حميمة دافئة من بوّابات النّص الأدبيّ، و قد يرد على شاكلة اعتراف وامتنان و شكر و تقدير و رجاء و التماس ...إلى غير ذلك من الصّيغ الإهدائيّة الّتي يؤدّي فيها البعد الوجدانيّ الحماسيّ و الحميم دوره المميّز"[22]. لهذا تأتي لعتبة الإهداء مكانةٌ خاصّةٌ، كونها تحمل في داخلها إشارات ذات دلالات موضّحة لما يكمن في متن النّص، والإهداء هو أوّل ما يحتكّ به المتلقّي من تحيّة ودّ ومشاعر طيّبة تسهم في جذبه نحو القراءة، وهو" يروم إلى خلق نوع من العلاقة وروابط الصّداقة بين الباثّ والمتلقّي، فلا يكون أوّل ما يصدمك من المؤلّف حقائقه العلميّة والمعرفيّة، بل تحيّة وهديّة تشرح النّفس، وتهدّئ الرّوح، وتعين البال على استقبال وفهم المقال"[23]، فهو يشكّل نوعًا من ميثاق ضمني بين المبدع والمتلقّي، يتضمّن دعوة من الأوّل إلى جمهوره للمساندة والدّعم، أو على الأقلّ المناقشة في ما سيذهب إليه.

" كما انّ للإهداء غايات أخلاقيّة وتربويّة تتجلّى في تلك الإهداءات الخاصّة، الّتي تستهدف ذوي القربى ومن لهم حظوة خاصّة لدى الكاتب، وله أيضًا غايات ايديولوجيّة من خلال تضمينه لحالة الغليان الاجتماعي أو المدّ السّياسي، وحالات الانكسار الّتي يعيشها الكاتب وخيبة أمله في الحلم لمجتمعٍ عادل حرّ وديموقراطي، فضلًا عن غاية البوح والمكاشفة حين تتمكّن الّذات من التّنفيس عمّا يجيش بداخلها من تناقضات يرتئي الرّوائي تكثيف مضمونها في خطاب الإهداءات الذّاتيّة على وجه الخصوص"[24].

بناءً على ما تقدّم أعلاه نستنتج أنّ الإهداء ليس مجرّد حشوًا، أراد من خلاله الكاتب أن يكسو بياض صفحةٍ ما في كتابه به؛ فلا يكون التّجاوز عنه أمرًا ممكنًا، بل هو جزء أساسيّ يسهم في" إضاءة النّص وكشف بنياته الصّوتيّة والصرفيّة والتّركيبيّة، والبلاغيّة، وتحليل آليّاته الدّلاليّة ومقصديّاته"[25]. لذلك يجب الوقوف عند هذه العتبة في مجال المقاربة النّصّيّة والتّحليليّة لنقدها، والكشف عن مخبوءاتها، وما العوامل الّتي دفعت الكاتب أن يصوغها بهذه الصّورة أو بأخرى؟ وهي تضيء لنا ما خُفي في بعض دهاليز النّصّ.

من هذا المنطلق تأتي دراستنا المقاربة للإهداء في رواية" وطن من زجاج" للكاتبة الجزائريّة ياسمينة صالح؛ لنقف على أبعاده الرّمزيّة والسّيميائيّة، لنفهم من خلالها مقصديّات الكاتبة.

لقد لجأت الكاتبة إلى صيغة إهداء خاصّة، خارجة عن المألوف الّذي اعتدناه في الكتب والدّراسات المختلفة، الّتي غالبًا ما يتصدّرها إهداء مقصود إلى أشخاص تربطنا بهم علاقة ما، أو إهداء مقصود إلى شخصيّة أو مكان يرتبط الكاتب من خلاله بعلاقةٍ معيّنة، لكنّنا لم نعثر على أيّ شيء من هذا لدى ياسمينة صالح في رواية" وطن من زجاج"، فنراها اختارت لنفسها إهداءً ذا مضمون مترامي الأطراف، فكان ذلك على النّحو التّالي:

"حين نستيقظ صباحا و لا نجد وطنًا نتّكئ عليه نكتشف حدّة اليتم و الفراغ المهول الذي نجرّه يوميا في عمرنا الجاهز للانكسار و اليتم و اللّا أمل ..

إلى كل الذين يعتقدون أنّ حزنهم أرفع من خيباتهم الكثيرة. أرفع من سوء الطّالع الذي يتربّص بهم في مسيرة البحث عن وطن لا يسكنه القتلة.. و لا الطّواغيت.

- إلى الذين رحلوا تاركين ذاكرتهم معنا.
- إلى جيلي. و الجيل الذي تلاه ، و الجيل الذي سيولد عمّا قليل أكثر يتمًا و فجيعةً.

(22) عبد المالك أشهبون، (2009). عتبات الكتابة في الرواية العربية ، الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا ،ط2 ،ص199.

(23) سعيد الأيوبي، (2003). " عتبات النّصّ في ديوان" آدم الّذي..." للشاعرة حبيبة الصّوفي، مجلّة علامات، ع19، ص 49.

(24) يوسف العايب، (2019). " الإهداء كمصاحب نصّي في رواية وطن من زجاج لياسمينة الصّالح: قراءة في الأبعاد الدّلاليّة والوظيفيّة"، مجلّة جسور المعرفة، المجلّد 05، ع 02، ص188.

(25) جميل حمداوي، (2016). شعريّة النّص الموازي ، ط2، المكتبة الشّاملة، ص 109.

- إلى الوطن الذي نحبّه برغم كلّ شيء.. ونعيش فيه برغم كل شيء"[26].

بدأت الكاتبة إهداءها بمقدّمة تعبّر عن وعيٍ يكشف حالة من الضّياع واللّا وجود، فنراها لجأت فيه إلى استخدام ضمير المتكلّمين من خلال تعبيرها عن الحالة الظّرفيّة الّتي تنتظرهم عند الاستيقاظ صباحًا؛ إذ تقول:" حين نستيقظ صباحًا ولا نجد وطنًا نتّكئ عليه نكتشف حدّة اليتم والفراغ المهول الّذي نجرّه يوميًّا في عمرنا الجاهز للانكسار واليتم واللّا أمل". أعطت الكاتبة إهداءها هذه المقدّمة السّوداويّة لتعبّر من خلالها عن ضياع الوطن في فترةٍ حرجة جدًا من تاريخ الجزائر، حيث أدّت التّناحرات والحرب الأهليّة إلى الكثير من احداث العنف والخسائر بين أبناء الوطن الواحد، حتى غدا الجزائريّون شعبًا يصحو على ضياع وطنه، فلم يعُد لهم ملجأ اومتّكأ يَقِيهم السّقوط عند الضّعف، فيتمّ استيعاب حدّة اليتم والفراغ الّذي يرافقهم بشكل يوميّ، في ظروف حياتهم ليأكل أعمارهم الّتي اختزلها اليتم واليأس.

ومن خلال هذه الافتتاحيّة السّوداويّة تجعل الكاتبة الإهداء على أربعة أقسام، شاملة بها كل أطياف شعبها المنكوب.

ففي القسم الأوّل فيه تقول:" إلى كلّ الذين يعتقدون أنّ حزنهم أرفع من خيباتهم الكثيرة. أرفع من سوء الطّالع الذي يتربّص بهم في مسيرة البحث عن وطن لا يسكنه القتلة.. و لا الطّواغيت". يختصّ المقطع بالحالمين بوطنٍ لا يقيم فيه قتَلة أو ظالمين لا يرحمون، أولئك الّذين يساورهم الاعتقاد أنّ حزنهم أرفع من خيباتهم الكثيرة أو حظّهم المشؤوم، فيتصوّرون عيشتهم في وطنٍ يخلو من القتل والطّغيان.

أمّا القسم الثّاني الّذي يأتي:" إلى الذين رحلوا تاركين ذاكرتهم معنا". هنا الإهداء مكرّس إلى الرّاحلين الفارّين من الوطن، لقسوته وقسوة ظروفه عليهم، فيأتي رحيلهم قسريًّا عن وطنٍ أحبّوه، لذلك حينما يغادرونه يتركون ذاكرتهم فيه، حتّى لا تؤرقهم بأجراس الحنين حين تدقّ في ساعات غربتهم البائسة.

وفي القسم الثّالث كرّست الكاتبة إهداءَها إلى ثلاثة أجيال، وذلك بالقول:" إلى جيلي. و الجيل الذي تلاه، والجيل الّذي سيولد عمّا قليل أكثر يتمًا و فجيعةً". هذه الأجيال تبدأ من جيل الكاتبة، الجيل الّذي عاش تفاصيل الحرب والتّناحرات الّتي دارت في البلاد، فجعلت الخوف والألم حالتين ملازمتين لهذا الجيل، بعدها يأتي الجيل الّذي وُلِد إبّان هذه الحرب والاقتتال، الدّائرة في بلادهم، فكانت ولادتهم حاضرة لواقعٍ بائس، لا فرصة فيه للاحتفاء بقدومهم حتّى، أمّا الجيل الأخير فهو لمن ولد بعد هذه الفترة الحرجة، فيأتي ليعيش على أنقاضِ ماضٍ بائس، اغتيل فيه أهله وأقرباءه، ممّا جعله الأكثر يتمًا وبؤسًا من الأجيال الّتي سبقته.

وفي المقطع الأخير من الإهداء نرى الكاتبة لا تتخلّى عن وطنها الّذي تحبّه رغم كلّ شيء، فتجعله واحدًا من المُهدى إليهم عملها، فهي تكتب له:" إلى الوطن الذي نحبّه برغم كلّ شيء.. ونعيش فيه برغم كل شيء". فهذا الوطن المصنوع من زجاج، غالٍ على أبنائه وهم باقون على نقل حبّه في قلوبهم والعيش فيه على الرّغم من أيّ شيء.

من خلال الإهداء نرى أنّ الرّواية تحمل لنا مضمونًا يمكن التنبّؤ بمجيئه على عكس ما تشتهي الرّياح، وطن منكوب في أبنائه، تكثر فيه حالات الموت ويطفح بالإرهاب واللّا أمن. وما تشعّب الإهداء إلّا مقدّمةٍ لتشعّبات الرواية والاحداث الّتي تتناولها.

المبحث الثالث: تجلّيات الديستوبيا في الرّواية:

تبني الكاتبة الديستوبيا في الرّواية على موضوع الموت، الّذي ميّز الواقع الجزائريّ في الحرب العشريّة، الّتي اجتاحت شوارع الجزائر، وحوّلته إلى ساحات قتلٍ وحرب عصابات، وانفلات أمني، أباح الخطف والقتل والاغتيالات؛ ليتحوّل الموت شبحًا يحوم في فضاء الوطن.

(26) ياسمينة صالح(2006). وطن من زجاج، ص 5.

ولأنّ موضوع دراستنا يتعلّق بالمدينة الديستوبية، فإننا نرتَئي أن نقوم بتقسيم هذا الفصل، بما يتناسب مع هذا الموضوع.

وقد تطرّقنا في هذا المبحث إلى انعكاسات الديستوبيا من خلال النّص، فكان ذلك على النحو التالي:

أ- ديستوبيا العنف، وفيها نستعرض كلّ ما جاء واصفًا لهذه المدينة من خراب وقتل وإرهاب، وكيف انعكس ذلك من خلال الرواية.

ب- الديستوبيا والإنسان، ففيها يتم الحديث عن الشّخصيّات وتعاملها مع المدينة، وسط ضياع القيم الإنسانيّة، وانصهار الذّات في عالم المدينة الموبوء بالإرهاب، ولن ننسى التطرّق إلى الشخصيّة المتسلّطة، الّتي انعكست من خلال شخصية الجد" الحج عبد الله"، في الرواية.

ج- الديستوبيا والزمان، حيث يتم التطرّق إلى عنصر الزّمان وعلاقته بالشخصيات في المدينة.

أ- ديستوبيا العنف

جاء حضور المدينة في الرّواية من خلال لجوء الرّاوي إلى الجزائر العاصمة، الّتي ظنّ أنها ستكون الأكثر تطوّرًا وازدهارًا، وبالتّالي سيجد فيها ملاذه بعد كلّ ما عاناه في قريته من مآسٍ وانكسارات. تزوّد الرّاوي بما ظنّ أنّه الشيء الكافي لأجل النّجاح في المدينة، وهو التفوّق في الدّراسة، إذ يقول:" فكّرت أنّ المدينة تكفي لأتفوّق في الدّراسة لأجل ألّا أكون واحدًا من هؤلاء القطيع. لا لأكون مثل جدّي أو رئيس البلديّة أو الفلّاحين البائسين الرّاضين عن أنفسهم"[(27)].

من هنا نفهم أنّ رحيل الرّاوي إلى المدينة جاء بحثًا عن حياةٍ عادلة، تحفظ له كرامته، وتحقّق له الحرّية، فلا يكون واحدًا من القطيع. فالرّحيل جاء منذ البداية كنوع من التمرّد على الواقع البائس الّذي كان للراوي في القرية، ولا نجهل أن المعلم، الّذي شكّل محط إعجاب للراوي، كان من المدينة، فهذا تكون المدينة معقلًا للتمرّد، والوعي للحقوق، وعدم الرّضوخ للذّل وقبول الأشياء كما هي دون مناقشة.

فالرّاوي رحل إلى المدينة باحثًا عن كلّ ما لم يعجبه في القرية، لكنّه صُدِم بواقعٍ أشدّ بؤسًا وشقاء، لذلك نراه يقول:" كنت اعلم أنّني خرجتُ من قرية صغيرة وبائسة لأدخل إلى قرية كبيرة اكبر بؤسًا كانت العاصمة تبدو لي قريةً كبيرة وموحشة"[(28)].

ففي المدينة يشهد الرّاوي كل الأحداث الإرهابيّة والموت والعنف، فيكون المشهد الأوّل فيها موت" الرشيد"، وهو شرطي عمل من أجل محاربة العنف، حيث تم قتله خلال محاربته لإحدى الجماعات المسلّحة، ليموت" مبتسمًا كمن يتحرّر أخيرًا من كذبة الوطن والنّاس"[(29)].

وقد تمّ التّعبير عن الوطن على أنّه كذبة، وذلك لكثرة استباحة دم المدنيّين فيه، وقتل الأبرياء وترويع الآمنين، فلم يكن فيه إلّا الإرهابيّون، والمتطرّفون المسلّحون، والمتمرّدون، والمعارضون، الّذين على الرّغم من اختلاف تسمياتهم، إلّا أن مهمّتهم واحدة وهي قتل الوطن وقتل شعور السّعادة فيه.

فهؤلاء أباحوا لأنفسهم حق القتل دون سبب، حتّى تحوّلت المدينة من جرّاء ذلك، إلى مكان لديستوبيا الموت الّذي يأتي قراره من " أمير الجماعة الّذي يحلم بدولة طواغيت جدد يملكون حقّ العقاب والعفو ويملكون حق الموت والحياة"[(30)]. والطّاغوت بالنّسبة لهؤلاء هو كلّ شخصٍ لا يفكّر مثلما يفكّر القاتل.

(27) ياسمينة صالح، وطن من زجاج، ص 45.

(28) المصدر السابق، ص 41

(29) المصدر السابق، ص 7.

(30) المصدر السابق، ص 70.

وما ادّى إلى تعميق هذا الشّعور الديستوبي لدى أبناء الجزائر، هو شعورهم بعجز الدّولة عن حمايتهم من الإرهاب، فتركت مواطنيها فريسةً لهؤلاء القتلة، يواجهون مصيرهم السيء أمامهم، فهذا الشيخ يقول للرّاوي بعد أن خانه تجلّده وانفجر باكيًا لفقدان أبنائه وأحفاده في مجزرةٍ أتت على الكثير من أبناء " المدية"، مدينته: "أين هي الدّولة؟ الّتي تكذّب أخبار المجازر في كل مكان. تناشد المستثمرين كي لا يصدّقوا أكاذيب الشّعب البائس الّذي يموت يوميًّا، وكي لا يصدّقوا الصور الّتي تبثّها وسائل الإعلام عن المجزرة الجزائريّة في زمن العار اليوميّ"[31]. من خلال هذه الكلمات الّتي جاء بها الرّاوي على لسان الشيخ في يظهر استفحال الإرهاب وديستوبيا العنف والموت، وسط إنكار الدّولة لما يحدث، وهنا يأتي دور الفساد الإعلامي، وسعيه في تضليل الصّورة الحقيقيّة عن المواطن والعالم. ومن يجرؤ على الكتابة الحقيقيّة سيواجه مصيره بالطرد او الاغتيال، والدليل على ذلك خوف صديقه " النذير" من الوقوع ضحيّة بعد أن وصلت الاغتيالات إلى الحيّ الّذي يسكن فيه، فصار يلتقي بوالدته سرًّا، وكذلك تصريح الرّاوي عندما قال:" أن تكون كاتبًا أوصحفيًّا في هذه المدينة فأنت مشروع ضحيّة أيضًا. مشروع مقتول. مشروع ميت."[32]. وقد اختارت الكاتبة هذه الصورة لمدينة العاصمة، والتي كانت مكان مجريات جلّ الأحداث، لتبيّن أنّ الفساد بدأ من النّواة، ولا بدّ له من أن ينتقل إلى الجميع.

" وإذا كان الموت هو علامة هذا الجزء من المدينة، فإنّ الجزء المقابل أصبح في ظلّ الإرهاب مختلفًا أيضًا"[33] ، وهنا يذكر الرّاوي الاختلاف الّذي كانت عليه المناطق المجاورة للمدينة والّتي كانت" مُحرّرة" من العصابات، بموجب انتماءاتها العقائديّة. فعندما دخل هذه الأحياء اكتشف أنّ" النّاس يمارسون الحياة بطرق مختلفة وبقناعات مختلفة... الرجال بقمصانهم الطويلة ولحاهم المسترسلة والنّساء بجلبابهم الأسود، فيخيل إليك أنّك دخلت إلى دولةٍ أخرى قابعة على خطوتين من الخط الفاصل بين الدّهشة والدّهشة"[34].

وفي مدينة " المدية" لم يكن الحال مختلفًا عمّا هو في العاصمة، فهناك هاجم المسلّحون النّاس الآمنين وقتلوا فيها 30 من أفرادها، والرّاوي يقول عن ذهابه لتغطية هذه المجزرة:" ذهبت ككلّ مرة لأغطّي واقعة الموت. كانت المجزرة أشبه برسم كاريكاتوري يومي.."[35].

في المقابل جاءت صورة أخرى مختلفة للمدينة عندما زارها " جاك شيراك" بعد ثلاثين عامًا من ارتكاب القائد" ديغول" المجازر فيها، فنرى المدينة مُزيّنة، مضيئة، حتى أنّ" رئيس البلديّة قرّر أن ينزل إلى الشّارع ليقود حملة تزيين على شرف الضّيف التاريخي العزيز!"[36]، وهذا يدلّ على الفساد السائد في المدينة والتواطؤ الّذي يقوم به السياسيّون من أجل استقبال عدوّهم، مطبّقين مقولة" في السياسة، عدوّ الأمس هو صديق اليوم"، وهذه كانت بمثابة" إهانة حضاريّة"[37] كما عرّفها الرّاوي.

والمدينة متبدّلة منافقة، تغيّر ألوانها بتغيّر زائريها، فقد " صارت المدينة زرقاء تمامًا. المدينة الّتي كانت تتباهى ببياضها الحالك، صارت زرقاء، على شرف الرئيس الفرنسي الّذي لأجله، تمّ تعطيل النّاس، وإخراج التّلاميذ من مدارسهم ليصطفّوا على أطراف الشوارع لاستقبال شيراك العزيز"[38]. وقد وضعت الكاتبة كلمة العزيز بين مزدوجين،

(31) المصدر السابق، ص 96.

(32) المصدر السّابق، ص 70.

(33) حسين تروش، " العنف وديستوبيا المدينة في الرواية العربية المعاصرة"، المجلّة العربية للعلوم الإنسانيّة، جامعة الكويت- مجلس النّشر العلمي، مجلد 38، عدد 152، 2020، ص280.

(34) ياسمينة صالح، وطن من زجاج، ص 61.

(35) المصدر السابق، ص 72

(36) المصدر السابق، ص 82

(37) الصدر السّابق، ص 82.

(38) المصدر السابق، ص 82.

لكونها تتحدث عن حالة من المفارقة، فيها تضيع كرامة العربيّ، في أوطانه، ثمّ يستقبل المعتدي بحماسة كبرى فيها. وفي هذا تجسيد للفساد السّياسيّ وتواطؤ الشّعوب العربيّة مع محتلّيها، حدّ القداسة، وهذه من سمات الديستوبيا.

وهكذا تشكّلت صورة المدينة الجزائريّة زمن الأزمة الوطنيّة، من صورٍ يوميّة للموت والعنف والإرهاب، فهي " ملعونة وبنت حرام"[39]، كما قال عنها زميل الرّاوي، بعد رؤيته الجثث الملقاة والمُنكّل بها، كما أنّها منافقة تبدّل ألوانها لترضي عدوّها والمسؤول عن دمارها، لتصبح ديستوبيا العنف علامتها المُميّزة لها وللرّواية الجزائريّة المعاصرة.

ب- الديستوبيا والإنسان

تُعدّ المدينة الفاسدة مكانًا يكره الإنسان المكوث فيه، حيث أنّ كثرة الأحداث الّتي تدور فيها تجعلها مكانًا غير صالح للحياة، لذلك تضيع فيها الإنسانيّة، ويعاني الفرد داخلها من الضّياع والتّشظّي. وهذا الأمر عبّرت عنه الكاتبة من خلال التساؤلات المتكرّرة للرّاوي وهو يقول:" من انا؟" في الصفحة 28، ومن خلال هذا السؤال يعود بنا الرّاوي بذاكرته إلى الوراء، تحديدًا إلى عام 1972 ليقول إنّه لا شيء، حيث كان في تلك الفترة ابن ستة أعوام، يأخذه جدّه معه لرؤية أرضهم، ويعرّفنا الرّاوي إلى جدّه الّذي كان" وقورًا وديكتاتوريًّا كما هو أيّ جزائريّ يجتهد ليكون مميّزًا وفوق الجميع"[40].

لقد كانت النّزهات مع الجد مشيًا على الأقدام على طول الأرض الممتدّة فوق تعب الناس وعرقهم وأحلامهم الصغيرة أو الكبيرة. فيعرّفنا الراوي عن نفسه من خلال أحداثٍ مأساويّة ربطته بجدّه الإقطاعي، المتسلّط، الّذي يتحكّم بمصير غيره، ومن يحاول التصدّي له، تتمّ تصفيته بطرق خفيّة. وكذلك حوادث الغرق الّتي كان يسبّبها لأصدقائه إذ يستدرجهم إلى السّباحة في الوادي ليلاقوا حتفهم، حتّى أطلق عليه لقب" لاكامورا" لتدلّ على انّه وجه شر ونذير شؤم، في حين يقول الراوي إنّه دليل على أنّه سيء الحظ، و" غير صالح للفرح تمامًا، ولأنّ الخيبة تسكن وجداني منذ بداية الأرض"[41]. والراوي يرى ان المدينة الّتي لجأ إليها هي واقع" لاكامورا" في أقذر صورها، والوطن هو لاكامورا أخرى، أي نذير شؤم، عديم حظّ، ولا تحق له الحياة. ثم يعود لتساؤله مرةً اخرى في الصفحة 39، قائلًا:" من أنا حقًّا؟" عندما تحدّث عن مآسٍ أخرى تلخّصت برحيل المعلّم، فموت العمّة الوحيدة. وما أن تكيّف مع وضع الفقد هذا حتى تدهورت حالة جدّته الصحيّة فمات، وهو ما دفعه للتساؤل مرّةً أخرى عن ذاته، وتبلغ قمة هذا الضّياع، عندما يتحدّث الرّاوي عمّا تبقّى له، او بالأحرى ماذا فقد، فيقول:" فقدت استقراري وأمني.. فقدت احلامي وفقدت حاجتي إلى الحلم أصلًا. فقدت ابتسامتي، وشعوري بالأهميّة إزاء نفسي. فقدت كرامتي. فقدت كبريائي. فقدت كل شيء تقريبًا.."[42]. فكل ما يدعو الإنسان إلى التشبّث بالحياة، والشّعور بالأهميّة وأنّله كيانًا، وجد الراوي نفسه فقادًا له، لذلك نراه يعترف في حوارٍ دفاعيّ متخيّل له مع اخت النّذير، إذ يقول لها:" أنا لا شيء. لست شيئًا. أنا لست أنا ولا احد"[43]. وهنا يتجلّى الضّياع والحرمان للإنسان. فالإنسان في الرّواية الديستوبية يعيش حالة من الضّياع المستمر، ضياع قادم من تراكمات كثيرة سبقته، حتى عندما يحاول أن يضع لنفسه تعريفًا، نجده لا يعرف كيف يقيّمها، فنرى الرّاوي يعرّف عن نفسه قائلًا: فيقول في ذاته:"أنا كلّ الوهم واللّا شيء معًا[44]"، وذلك من خلال مونولوج دفعه إليه " المهدي"، الشّاب الجامعي الشاذّ، الّذي كان يتباهى بمنصب والده وسعة نفوذه، فيضرب بالقيم والعادات عرض الحائط، ويتعامل مع كل من يحيطه بتعالٍ وفوقيّة.

(39) المصدر السابق، ص 73.

(40) المصدر السابق، ص 28

(41) المصدر السابق، ص39.

(42) المصدر السابق، ص 108.

(43) المصدر السابق 110.

(44) المصدر السابق ص 39

فَ" المهدي" كان ابن مسؤول في إدارة السجون، كان يسير مع حارسين ويسير في سيّارةٍ فارهة، يتباهى المهدي بالنّجمات الموجودة على كتف قميص والده، والّتي تمنحه الحماية، ودائمًا كان يرى نفسه " فوق النّاس" ولكن عندما أصبح والده يتلقّى رسائل تهديد بالقتل، تحوّل إلى واحد من النّاس يتحدّث عن الوطن وسارقيه، وكأنّه لم يكن واحدًا منهم. والمهدي ابن المدينة، يعاني من الشذوذ الجنسي وهو يمارسه مع " نبيل" الطالب المتفوّق، الّذي كان عشيقًا للمهدي مقابل المال، وحينما اختلفا فيما بينهما دهسه المهدي بسيارته الفارهة، وخرج من تهمة القتل سالمًا لنفوذ والده.

والمهدي يستغل الفتيات ويأتي بهنّ للسهر في شقته وشرب الخمرة مقابل " التشيبه" أي الوساطة بين السلطة والمواطن.

وفجأة انقلب المهدي ليتحدّث عن المبادئ والوطن، مشكّلًا شخصيّة ديستوبية متناقضة فهو يقول للرّاوي، الّذي لم يكن يومًا صديقًا له:" كأنّ الوطن صار كذبةً يا صاحبي. اللي باعوا الوطن هم الّذين يتكلّمون عنه بحماس[45]"، متجاهلًا إنّه كان أحدهم. ونراه يطعن في غيره متّهمًا إيّاهم بالاستفادة باسم الوطن، وكأنه في الأمس القريب لم يكن منهم، فيقول:" البركة في أولئك الّذين حقّقوا أحلامهم باسمنا. أولئك الّذين لأجل حياتهم يحتاجون إلى قتلنا واحدًا واحدًا.. لا مناص من الموت.. لأنّ القتلة أصبحوا اكثر من الشرفاء، ولأن الشرفاء يموتون كلّ يوم، أو يرحلون كي لا يتورّطوا معنا في نفس الوطن/ الفضيحة!"[46]. وهنا لا بدّ من التطرّق إلى المواقف المتقلّبة عند الإنسان الديستوبي، إذ يتعامل مع الوطن وفقًا لتلبية الأخير لرغباته وسلطته.

وفي المدينة نرى الرّاوي يخشى من مواجهة السّؤال:" من أنت" فجيب نفسه عنه " لم أعد شيئًا سوى ما تبقّى من شخصٍ فقد احلامه الأولى ويبدو جاهزًا ليفقد ما تبقّى منها، في خضم كل هذه الحالة/ الخراب!"[47]. هذه التساؤلات الّتي وضعها الكاتب عن ذاته، سواء من خلال الذاكرة أو في حواره مع ذاته، جاءت لتعبّر لنا عن الآلام الّتي تصطرع في داخل الإنسان الديستوبي، آلام نابعة من ضياع وتشظّي غير منتهيْن.

والمدينة تعاقب الإنسان المثقّف على مبادئه، فتصدّ أمامه كل سبيل للعيش بكرامة، فالمعلّم، والد النّذير، فُصِل من عمله بتهمة التّطاول على الأسياد، فصار يبحث عن عمل، ليعيل من خلاله أسرته، فعمل في متجر، لكنّه طُرد منه فلجأ إلى العمل" حمّال" في الميناء، حتّى توفّي، " مات حاملًا حزنه الشّخصي وانكساره الكبير.. مات تاركًا أسرة مصدومة بذلك الرّحيل المفاجئ"[48].

أيضًا الثّلاثيني المثقّف الّذي ظنّ" أنّ شهادته الجامعيّة ستشفع له عند الآخرين كي لا يحاسبوه على أخطاء لم تكن له يد فيها"[49]، وجد نفسه مسحوقًا من قبل الجميع، ولم يعثر على عمل، فوقع تحت سياط اللّوم من قبل أهله والمجتمع، ثمّ عاقبه عمّه بحرمانه ممّن يحب، إذ قرّر تزويج ابنته، حبيبة الشّاب، من رجل أكبر منها لديه موارد يعيلها هي وأهلها. فما كان منه إلّا وضع حد لنفسه حرقًا على مرأى من أهله والنّاس كلهم، مختارًا لنفسه ميتةً رآها الأنسب، بدلًا من انتظار قتله برصاصة أحدٍ ما في الأزمة القادمة، فوضع الإنسان حدًا لحياته، واختيار طريقة موته بيده هي الحاجة الوحيدة الّتي يختارها الإنسان في الديستوبيا.

من هنا نستشفّ أنّ الديستوبيا تشكّل مقبرة لأحلام مثقّفيها، الّتي بسبب مبادئهم ومواقفهم يدفعون الثّمن باهظًا، كماأنّها تزجّ بشبابها إلي الانتحارن بعد أن أزهقتهم أرواحهم من البطالة والجوع والفقر والحرمان.

(45) المصدر السابق، ص 52.

(46) المصدر السابق، ص 54.

(47) المصدر نالسابق، ص 59.

(48) المصدر السّابق، ص 62.

(49) المصدر السّابق، ص 103.

وفي موقفٍ آخر تحدّث الرّاوي عن الطّفل الّذي نجا من مجزرة تمكّن الإرهابيّون خلالها من قتل جميع أفراد عائلته، وبقي هو النّاجي الوحيد، وحين جاء الرّاوي لكتابة تقرير صحفيّ عن المجزرة الّتي كانت، وجده ملازمًا للصّمت، نظراته زائغة، فلم يسأله الراوي عن اسمه اوعن شيء من تفاصيله، واكتفى بالتقاط صورةٍ له، لخّصت كل ما لا يُقال.

فهذا هو واقع الإنسان في الديستوبيا، واقع تضيع فيه الطّفولة، وتُقتل فيه الأحلام ويضيع فيه المستقبل. واقع تنصهر فيه الذّات وسط شلّالات من الدّماء المضرجة، وتدفع ثمن ذنوب لم ترتكبها.

ج- الديستوبيا والزمان

" لا يمكن لأحدٍ أن قيمة الزّمان في المدينة، إذ تبدو من خلاله العلاقات الاجتماعيّة، وفي مختلف الفعاليّات للمدنيّة. ويكاد يكون لكلّ إنسان زمنه الخاص" [(50)]، وذلك وسط معاناة من الوحدة والضّياع في فضائها.

وفي الديستوبيا، يجد الإنسان نفسه ساكنًا في مكان غير مرغوب، فمن الطبيعي أن يكون هذا التواجد في الزمن الخطأ، لذلك ارتأينا إلى تقسيم الزّمن في هذه الرواية إلى قسمين تراوَحا بين ماضٍ جميل، كانت للراوي فيه تجاربُ جميلة في القرية الّتي يحنّ إليها، وحاضرٍ في المدينة غير مرغوب، تسكن الموت عقارب ساعته ولا ترضى ان تغادرها.

وقد جاء الحنين إلى الماضي، عندما عثر الرّاوي، صدفةً، على اسم " النّذير" المحرّر لصحيفة مستقلّة، فيقرّر الذّهاب إلى مقرّ الجريدة ليبحث عنه، فيقول عن مشواره هذا:" يومها أخذت حنيني وذهبت باتّجاه مقرّ الجريدة المستقلّة"[(51)]. فاصطحاب الحنين يدلّ على أن الواقع غير مرغوب فيه، والحنين يحمله إلى المكان الّذي يربطه بشخصيّاتٍ يحبّها.

فالرّاوي يصرّح انّ النّذير يعني كل التفاصيل الجميلة، أي الذكريات الّتي يحنّ الرّاوي إليها، وهذا يدلّ على ماضٍ جميل.

في المقابل يعاني الراوي من الوحدة والخوف في الوقت الحاضر، وقد عبّر عن ذلك، بعدما التقى بالنّذير، من خلال قوله:" فجأة وجدتني أقلّ وحدةً ممّا كنت، ربّما لأنّي اكتشفت أنّ التّشارك في المآسي أعمق من التّشارك في الأفراح، وانّ النّذير ملأ حياتي من حيث لا يدري، كان يكفي أن يعود بي إلى القرية لأفهم أنّه جزء من ذاكرتي"[(52)]. فالرّاوي في المدينة يعاني من حاضرٍ بائس، يقضي يومه وحيدًا لا يجد من يشاركه مشاعره، فجاء النّذير وملأ بحضوره هذه الوحدة، ويكفي أنّ هذا الحضور يعيد الراوي إلى القرية حيث الماضي الجميل وبراءة الأطفال والحبّ الأوّل.

وعندما يتّفق الرّاوي والنّذير على إنشاء جريدة مستقلّة لهما، يقول له النّذير إنهم سيكتبان عن " زمن الفجيعة والحقيقة" وليس الوهم، وهذا يعكس صورة الزّمن الحاضر في المدينة، المليء بالفجيعة والموت. وتأييدًا لهذا القول يأتي تصريح الرّاوي :" داخل المجزرة فقط كان الوقت يبدو حقيقيًّا وملموسًا"[(53)]. وهذه شهادة على الحاضر الموبوء بالإرهاب في المدينة.

ومع تراكم الأحداث وتوالي الإرهاب، نرى الرّاوي يصف الوقت الحاضر بذي الواقع السّوداوي، حيث يعاني فيه من الوحدة وقمّة الإحباط، فكان يقضي يومه بالتّسكّع والتنصّت على أحاديث البؤساء وكانّه من خلال ذلك يشاطرهم آلامهم ووحدتهم.

(50) عز الدين اسماعيل، الشعرالعربي المعاصر، ص 331.

(51) اياسمينة صالحن وطن من زجاج، ص 59.

(52) المصدر السّابق، ص 64

(53) المصدر السّابق، ص 72.

وصورة الزّمن في المدينة والحنين إلى الماضي، ليس شرطًا أن يكون الماضي تابع للقرية، بل أيضًا الماضي في المدينة، فمثلًا النّذير يشتاق إلى الوقت الّذي لم يكن فيه مُطارَدًا، يخاف على أهله. وكذلك عن حديثه عن مفهوم قيمة الحياة الّذي تغيّر فجأةً" فلم تعد مهمّة، ولا ضروريّة، ولا بائسة أيضًا، صارت عاديّة، عاديّة فقط"[(54)]. وهذا الشعور يصف لحظة الواقع الحاضر، في الوقت الّذي كانت فيه الحياة مهمة وضرورية وغير عاديّة في الماضي. وفقدان معنى الحياة من النّاحية النّفسية، يأتي ليعبّر عن حاضر سيء، يعيش فيه الإنسان دون جدوى.

وفي المدينة يأتي اللّيل الوقت الأكثر مناسبًا للاختلاس وزيارة الأهل، في حين النّهار يكون لممارسة العمل والاختباء عن عيون المجرمين والمتربّصين للضّحايا.

من هُنا نرى أنّ الحديث عن الزّمان في المدينة لا يتوقّف عن التطرّق إلى الحنين إلى ماضٍ بعيد، تشتاق الشخصيّات إلى العودة إليه، وقد تضمّنت القرية الجزء الأكبر فيه، وواقعٍ مرفوض، الشخصيّات في العودة إليه، وقد تضمّنت القرية الجزء الأكبر فيه، وواقعٍ مرفوض، يصف الحياة في المدينة وما بها من أحداث إرهابيّة وموت حائم.

وبسبب المجازر الّتي تُرتكب في المدينة، صار الخوف رفيق كل الأزمان، أمّا المستقبل فهو غامض ولا أفق له، لهذا تحوّلت الحياة فيها إلى عاديّة، غير ضروريّة، لأنّ لا جدوى من الحلم المبتور الأطراف.

والنظرة إلى الزمان في المدينة كانت لها علاقة مباشرة بالمشاعر الّتي يمرّ بها الإنسان، إن كان مهمومًا يرى الوقت يمرّ بطيئًا ثقيلًا، وإن انتظر ميعادًا مهمًّا، كان الشعور كذلك، أما حينما يحب، يشعر أنّ الوقت قصير، وهذا ما رأيناه لدى الراوي، الّذي صوّر صورة تفاؤليّة للمستقبل حينما بكت أخت النّذير على صدره، تلك المرأة المخطوبة الّتي أحبها من طرفٍ واحد، والآن بعد موت خطيبها، ستكون الفرصة له حتى يحقق مستقبل هذا الحب معها، لذلك بدا الوقت جميلًا تلك اللحظة، رغم ما يعتري المدينة من سواد وحزن بسبب حالات القتل المستمرّة.

الخاتمة:

1- تمكّنت الكاتبة ياسمينة صالح من تصوير ما حلّ بالمجتمع الجزائري جرّاء الفترة العشريّة، وحرب العصابات الّتي دارت فيها لأسبابٍ سياسيّة؛ فاكتسبت خلالها المدينة صفة الفساد والعنف.

2- أكّدت الكاتبة من خلال أحداث الرواية، أنّ المدينة الديستوبيا تعتبر فضاءً للموت في كل مجالاتها، وساحاتها، فأينما يحل المواطنون يأتِهم الموت، فصارت ظاهرة القتل، والخوف والموت من الأشياء العاديّة، والمظاهر اليوميّة فيها

3- برزت إيديولوجيّة رفض المستعمِر والدعوة إلى حب الوطن والبقاء فيه، مهما كلّف الأمر، ووجوب نقل الصّورة والحقيقة كاملةً عن الوضع المتواجد فيه الإنسان العربيّ، لا سيّما الجزائري، في وطنٍ وسّع المستعمر الفجوة بين أبنائه، فتركهم يتناحرون فيما بينهم، على من هو الأوفى، كما برزت الصورة الحقيقية للديموقراطية المصطنعة.

4- شكّل أدب الديستوبيا الثيمة الأكبر والأقرب للتعبير عن حالة العنف والإرهاب الّتي غزت الأوطان العربيّة، نتيجة لما مرّت به، من محن على يد المستعمِر، ثمّ على يد أبنائها، ليتحوّل الوطن من روضة جنة، إلى حفرةٍ من نار تأكل من يدخلها أو يقترب منها، ورغم حب أبناء له يقوم بتصفيتهم. وقد أبرزت الكاتبة أن اكثر من دفع الثّمن ووقع ضحيّة للإرهاب في هذه الفترة هم المثقّفون، لا سيّما من امتهن الصحافة منهم، وقرّر رفض ما ينشره الإعلام الفاسد، ونقل الحقيقة الكاملة، فلم يرضوا بالرّضوخ والاستسلام، لذلك كانت تتم تصفيتهم، الواحد تلو الآخر.

(54) المصدر السابق، ص 91.

5- في المدينة الفاسدة يكمن ضياع الإنسان، وقلة حيلته، فنراه وحيدًا مشتّتًا، أو منحلًّا شاذًا. لذلك تراجعت قيمة الإنسان، الّذي وجد حياته لا معنى لها، كما أنّ الشهادة الّتي كانت قد تشكّل حلًّا لمشاكل حياته، وجد أنّ لا قيمة لها، فنرى حالات الانتحار تكثر في المدينة.

6- يعاني الإنسان القاطن في المدينة الديستوبيا من الخوف والقلق، فلا يرى أن هناك امل للحظات جيدة، وأوقاتٍ أفضل، فهو يعاني من التيه والتشظّي، وعدم وجود قيمة له بسبب البطالة والفقر والفساد الّذي يعمّ شتّى الأنحاء، كما أنّ الدراسة لم تكن ذات قيمة، لأنّ المدينة كانت تتغذّى على قتل أبنائها، لذا لا غرض أو هدف من وراء التّعليم.

7- الزمن في المدينة الفاسدة يرمز إلى حاضر مأساوي، والبقاء فيه لا يسرّ أبدًا، لذلك كثرت تفاصيل الحنين إلى الماضي لدى شخصيّات الرواية؛ لأنه أجمل وأفضل، والهموم أقل، وقد كان هذا الزمان في الغالب خارج المدينة.

8- المدينة الفاسدة هي مكان وزمان غير مرغوبين، تجري فيهما الأحداث الإرهابية والعنيفة فتحوّل الحياة إلى كابوس ويكون شبح الموت يخيّم على الجميع، وهي المكانٌ المرادف لمعنى ضياع الذّات وهدر الكرامة.

المصادر

1- أشهبون، عبد المالك، (2009). عتبات الكتابة في الرواية العربية ، الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا ،ط2 .

2- بوقندول حبيبة؛ بوهالي حسيبة، " ظاهرة الإرهاب في رواية "وطن من زجاج"، رسالة ماجستير، جامعة عبد الرحمن ميرة، كلية الآداب واللغات، الجزائر.

3- برجكاني فاطمة، (2018). " الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية" لفوزي ذبيان"، مجلة إضاءات نقدية في الادبين العربي والفارسي، عدد 29.

4- تروش، حسين " العنف وديستوبيا المدينة في الرواية العربية المعاصرة"، المجلّة العربية للعلوم الإنسانيّة، جامعة الكويت- مجلس النّشر العلمي، مجلد 38، عدد 152، 2020.

5- جاستون باشلار(1980)، جماليات المكان: ترجمة:غالب هلسا، كتاب الأقلام(1)، يصدر عن مجلة الأقلام، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دار الحرية للطباعة.

6- جميل حمداوي،(1997)." السيموطيقيا والعَنْوَنة" ، مجلّة عالم الفكر، الكويت، وزارة الإعلام، عدد 3.

7- جميل حمداوي، (2016). شعريّة النّص الموازي ، ط2، المكتبة الشّاملة، ص 109.

8- سعيد الأيوبي، (2003). " عتبات النّصّ في ديوان" آدم الّذي..." للشاعرة حبيبة الصّوفي، مجلّة علامات، ع19.

9- صبريّة خنشيل؛ صليحة بوفدش،(2018). " بنية الفضاء في رواية وطن من زجاج" ، رسالة ماجستير، كلّيّة الآداب واللّغات، جامعة محمد الصديق.

10- الظاهر نعيم، (1999)، إدارة الأزمات، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1.

11- عز الدين اسماعيل،(2013). الشعرالعربي المعاصر.

12- علّا عبد الرازق، " الرّواية النّسوية الجزائريّة ترصد محنة الوطن في العشريّة السّوداء، رواية "وطن من زجاج لياسمينة صالح- أنموذجا"، مجلّة المدوّنة، مجلد 8، عدد 2، ص ص 1781-1792، 2021/06/30.

13- عيساني نزيهة؛ براهيم عبد النور،(2018). " جدلية الذات والوطن في رواية وطن من زجاج لياسمينة ، عدد صالح". مجلّة دراسات، المجلد 7، عدد 01، ص ص 68-78.

14- نازك، ضمرة،(2010). " قراءة نقدية لرواية (وطن من زجاج) للأديبة الجزائرية ياسمينة صالح"، المجلة الثقافية الجزائريّة، تاريخ 2010/07/08.

15- هدى عمّاري،(2012). " سميائيّة بنية المناص في رواية وطن من زجاج للروائية ياسمينة صالح"، المجلّة الثّقافيّة الجزائريّة،

16- سميائية بنية المناص في رواية وطن من زجاج للروائية ياسمينة صالح – المجلة الثقافية الجزائرية(thakafamag.com)

17- ياسمينة صالح،(2006). وطن من زجاج ، منشورات الاختلاف، الجزائر.

18- يوسف العايب، (2019). " الإهداء كمصاحب نصّي في رواية وطن من زجاج لياسمينة الصّالح: قراءة في الأبعاد الدّلاليّة والوظيفيّة"، مجلّة جسور المعرفة، المجلّد 05، ع 02.